الورقة الأولى

البيئة السياسية والاستراتيجية قبل الحرب

رائد نعيرات*

تعد بداية أي حرب امتدادا لعنصرين أساسيين: التغيير في المكان والتغيير في العلاقات الناظمة للفعل السياسي وفلسفته، فالتغيير الحاصل فيما يسمى الرقعة الجغرافية، سواء من ناحية الحدود أو التفاعلات المكانية على اختلاف أنواعها، مسبب لتطور الحالة السياسية بين طرفين وتحول الأزمة السياسية إلى حالتها الطبيعية، وأعلى عنوان لها هو استخدام القوة.

أما العنصر الثاني الذي لا يقل أهمية عن الأول، والمشكل لاستفحال الأزمة السياسية وتحولاتها الدراماتيكية، فهو طبيعة العلاقات الناظمة للفعل السياسي، سواء التحالفات أو التغيير في مستوى القوة والضعف للمنظومات الموجهة للفعل السياسي، ثم العنصر الآخر، وهو طبيعة الفلسفة السياسية وتغيراتها لدى كلا الطرفين والفئة الموجهة للفعل السياسي.

وبناء على هذه المتغيرات تتم عملية قياس البيئة السياسية والاستراتيجية الحاضنة، والرحم الأساسي لاشتعال فتيل الحرب بين أي كيانين سياسيين، علاوة على ذلك تتم عملية قياس مستوى النجاح أو الفشل في الحرب بقدرة أطراف النزاع على تحقيق مكتسبات سياسية تغير من معادلات الخصم داخل المساحة الاستراتيجية (بمعنى أن لكل حرب أهدافا استراتيجية غير معلنة، ومدى النجاح والفشل يقاس بمدى تحقق هذه الأهداف من عدمه أو مستوى التحقيق)، وعندئذ من السهولة قياس مدى النجاح والفشل عبر الوقوف على طبيعة المتغيرات ومقدار خدمتها لأهداف الخصم أو للذات.

***د.رائد نعيرات:** أستاذ العلوم السياسية- جامعة النجاح الوطنية، ورئيس المركز الفلسطيني للديمقراطية والدراسات- نابلس.

ومن الطبيعي عند دراسة الحرب على قطاع غزة أن يأخذ الدارس بالاعتبار أن هذه الحرب ليست ككل الحروب، فهي ليست متكافئة بين خصمين (دولتين)، وكذلك ليست متكافئة من ناحية الموازين، ولكن لا يمكن إغفال أن هذه الحرب تشترك مع مثيلاتها من الحروب بالأهداف، سواء لدى إسرائيل بصفتها الدولة التي أعلنت الحرب، أو لدى المقاومة الفلسطينية بصفتها الطرف الذي لم يرضخ للمعادلات التي تريدها إسرائيل.

إذاً، وبمعنى آخر، اعتبرت قوى المقاومة أن خيار الحرب سيغير من بيئة الصراع، ويسمح بمنحها فرصة تغيير شروط اللعبة أو استحداث منهجية جديدة للتعامل معها لصالحها، مما جعل الحرب على قطاع غزة مختلفة عما سبقها من حروب بين إسرائيل والعالم العربي أو المقاومة الفلسطينية وذلك على عدة صعد:

١- هذه الحرب وجودية للمقاوم الفلسطيني، وعلى العكس فيما يخص الجندي الإسرائيلي.
٢- أنها الحرب الأولى التي تقودها المقاومة الفلسطينية على الأرض الفلسطينية، واعتبار المقاومة سياسة عامة للنظام السياسي في القطاع.
٣- لم تتوقف الحرب ضمن مشروع سلمي، وبذلك حرمت إسرائيل من التحكم في نتائجها ومخرجاتها.
٤- كان مستوى القوى الداعمة للمقاومة وتغيرها على صعيدين: مستوى الدور الجماهيري، ومستوى دور النخب السياسية.

وأدى ذلك، إلى تمفصل في الموقف العربي، علاوة على دخول قوى جديدة ضاغطة ومن أبرزها تركيا.

على هذه الأرضية ستتم المناقشة في هذه الورقة منطلقة من البيئة الاستراتيجية والسياسية الجديدة التي تشكلت قبيل الحرب، ومدى تأثيرها في أهداف الحرب لدى كلا الطرفين، مشفوعة بالمقدرة على تحليل مؤشرات النجاح والفشل، سواء للمقاومة أو للإسرائيليين.

البيئة السياسية والاستراتيجية قبيل الحرب

أولا: فلسطينيا

جاءت عناصر البيئة السياسية قبيل الحرب ضمن مجموعة من المتغيرات، ومن أبرزها:

أولا: جزء من النظام السياسي الفلسطيني يتبنى المقاومة في قطاع غزة وهذا يعتبر تحولا ومتغيرا استراتيجيا في العلاقة الفلسطينية- الإسرائيلية، وذلك على عدة محاور:

١- لأول مرة يتم تشكيل مقاومة منظمة ورسمية مدعومة بقرار سياسي ومستندة إلى سياسة عامة، وعلى الأرض الفلسطينية.

٢- مستوى التهديد الذي تشكله المقاومة الجديدة للإسرائيليين، حيث إن هذا النوع من التهديد أصبح غير محدود، علاوة على تطوره وإشاراته الاستراتيجية.

٣- شرعية المقاومة، فهي لم تعد حركة خارج الفعل السياسي، وإنما أصبحت أداة تنفيذ للسياسة العامة للسلطة في قطاع غزة، وتمتلك الشرعية عبر الانتخابات.

ثانيا: الانفصال السياسي بين الضفة الغربية وقطاع غزة والعلاقات الناظمة للسياسة الفلسطينية الداخلية والجدليات.

ثالثا: الجدل الدائر حول مخرجات عملية التسوية والمفاوضات، وطبيعتها ومدى الاستجابة لشروطها، ومستوى مخرجاتها، أي القدرة على إيجاد حل دائم.

ثانيا: إسرائيليا

شهدت الحياة السياسية الإسرائيلية مجموعة من المتغيرات قبيل الحرب ومن أبرزها:

١- إخفاقات الجيش الإسرائيلي في حرب تموز / يوليو٢٠٠٦ على جنوب لبنان، وفشله في تحقيق أهدافه ضد حزب الله اللبناني.

٢- الضعف السياسي الرسمي نتيجة لعدم وجود الحكومة الفعلية الناظمة للعمل السياسي، لأن حكومة أولمرت هي حكومة تسيير أعمال.

٣- الصراع والحراك الحزبي الإسرائيلي الداخلي، فحزب كاديما أو ما أطلق عليه حزب المرحلة، لم يعد يمتلك قدرة على إعادة صناعة الذات ضمن برنامج

الانسحاب أحادي الجانب، وحزب العمل يطمح لإعادة هيبته السياسية، والليكود ينتظر تحولا في العلاقات تجاه تحقيق مكاسب انتخابية جديدة.

ثالثا: عربيا

١- انقسام عربي تجاه مكونات السياسة الفلسطينية، سواء في العلاقة مع السلطة الفلسطينية، أو في العلاقة مع حركة حماس في قطاع غزة.

٢- عدم قدرة النظام العربي الرسمي على تخطي العقبات وتقديم بديل سياسي، يرفع من سقف الفعل السياسي العربي سواء يمينا أو يسارا، حتى أصبح يتمركز حول المبادرة العربية للسلام ٢٠٠٢.

رابعا: إقليميا

تشكل المشهد السياسي الإقليمي من بروز مجموعة من القوى التي تلعب دورا خفيا في محاولة تشكيل قوة إقليمية تمكنها من لعب دور، ومن أبرز هذه القوى:

١- إيران، حيث ظهرت قوة إقليمية في المنطقة، وفي الوقت نفسه أثبتت أنها الداعم القوي لقوى المقاومة.

٢- تركيا، وتمثل الداعم القوي للموقف الفلسطيني والعربي ضد إسرائيل.

خامسا: دوليا

تشكل متغير أساسي دولي عشية الحرب، تمثل في المرحلة الانتقالية في الإدارة الأمريكية، وهذه المرحلة جاءت مشجعة لإسرائيل للقيام بالحرب من أجل تغيير بعض المعادلات المستقبلية، وتتمثل فيما يلي:

١- استغلال الدعم غير المحدود من إدارة جورج بوش الإبن.

٢- تكبيل إدارة أوباما الجديدة وتوجيه بوصلتها بشكل معين.

مخرجات الحرب

بعد الاطلاع على أهم سمات هذه الحرب، وما رافقها من عوامل شكلت في مجملها بيئة الحرب، يمكن القول إن تلك السمات والعوامل ساهمت في صياغة مخرجات الحرب.

- **المستوى الفلسطيني**

جاءت مخرجات الحرب فيما يخص الجانب الفلسطيني ووفقا للبيئة الموضحة أعلاه مقللة من أهمية الإنجاز الذي حققته المقاومة الفلسطينية في قطاع غزة، فبالرغم من أن المقاومة الفلسطينية في هذه الجولة من المواجهة مع الاحتلال الإسرائيلي جاءت لأول مرة في إطار مؤسسات النظام السياسي الفلسطيني- الحديث هنا عن قطاع غزة- إلا أن حالة التنافر الماثلة بين قطبي الساحة السياسية الفلسطينية حرمت الكل الفلسطيني من استثمار مخرجات الحرب الميدانية لصالح القضية الفلسطينية سياسيا.

إضافة إلى ذلك، فإن بدء الحرب من قبل إسرائيل على قطاع غزة وعدم انعكاس ذلك على الموقف الفلسطيني من عملية التسوية ساهم بشكل ضمني في تكريس حالة الانفصال القائمة، بل وأظهر أن إسرائيل تعادي جزءا من فلسطين.

صحيح أن المفاوضات تم إيقافها فلسطينيا من خلال القائمين عليها احتجاجا على بدء الحرب، لكن هذا الموقف تبين بعد الحرب على أنه تعامل آني ليس أكثر؛ فبعد أن طوت إسرائيل دفتر الحرب، وفتحت صناديق الاقتراع، أعلن الرئيس الفلسطيني محمود عباس استعداده للتفاوض مع أي حكومة تفرزها الانتخابات الإسرائيلية، وكان هذا التصريح انعطافة تهدف إلى إيصال رسالة إلى جميع الأطراف أن ما حصل في غزة لم يكن عاملا مؤثرا على بنية العلاقات بين السلطة الفلسطينية وإسرائيل.

أما على الحرب ذاتها فقد كانت البيئة الفلسطينية المتوترة عاملا قويا في إظهار الضفة الغربية جزءاً متعاطفاً مع قطاع غزة وليس طرفا في الحرب يتعرض نصفه الآخر إلى الاعتداءات الإسرائيلية، وإن كانت هذه الملاحظة جزئية، إلا أن ما شهدناه من احتكاكات بين الشبان الفلسطينيين وجنود الاحتلال في الضفة كرد فعل على حرب غزة، كانت أضعف بكثير من تلك التي نشبت في غزة كرد فعل على عدوان إسرائيل على الضفة في عام ٢٠٠١، وذلك نتاج الموقف الرسمي للسلطة في الضفة التي أرادت الهدوء للضفة الغربية.

- **المستوى الإسرائيلي**

أثرت البيئة السياسية والاستراتيجية التي كانت قائمة قبيل الحرب وأثناءها على قطاع غزة، على الطرف الإسرائيلي ضمن عدة محاور، وهي كالآتي:

الأول: محدودية الزمن، فقد شكل تنصيب أوباما رئيسا جديدا للولايات المتحدة الأمريكية وتسلمه لمنصبه، سقفا زمنيا ضمنيا للعمليات العسكرية الإسرائيلية، مما جعل إسرائيل مجبرة على وقف عدوانها والانسحاب من القطاع، كي لا تدفع أوباما لانتقاد إسرائيل في أول أيام رئاسته، فيما سمي حينها بسياسة تنظيف الطاولة من أمام أوباما، حتى لو لم تحقق أهدافها وهذا ما حصل فعلا.

إضافة لذلك فإن سقفا زمنيا آخر كان قائما داخل إسرائيل ذاتها وهو الانتخابات الإسرائيلية وحملتها الانتخابية، التي لعبت دورا في تحديد عنصر الزمن لدى الطرف الإسرائيلي، بشكل دفع إلى التدرج السريع في تنفيذ عملياته ميدانياً والانتقال من مرحلة إلى أخرى دون تحقيقه لأهدافه.

الثاني: عملت إسرائيل بعد عام ٢٠٠٦ وخسارتها لهيبة الردع نتيجة حرب تموز/ يوليو مع حزب الله، على محاولة بناء الثقة من جديد في جيشها وقوتها العسكرية أمام مجتمعها على الأقل، وفي الحرب على غزة لعبت هذه البيئة التي تشكلت منذ عام ٢٠٠٦ على دفع إسرائيل الى أن تكون أكثر حذرا في عملياتها العسكرية، حتى لو أثر ذلك على قدرتها في تحقيق الأهداف، فالأهم كان بالنسبة لإسرائيل أن تقلل خسائرها وبخاصة في صفوف الجيش، وقد استطاعت جزئيا تغيير الصورة التي وصم بها الجندي الإسرائيلي في حرب لبنان، على الأقل في أعين الجنود فقط.

الثالث: إعادة تشكيل القوى الحزبية الإسرائيلية؛ إذ هيأت الحكومة الإسرائيلية مواطنيها قبل الحرب، أن التعامل مع قطاع غزة لا بد أن يكون عسكريا وقويا، فلم تجد سياسة الحصار نفعاً في إجبار حماس على الاستسلام والتراجع عن سياساتها، وهنا كان خيار الحكومة آنذاك بقيادة أولمرت شن الحرب على قطاع غزة، هذا الأمر ساهم في رسم خارطة حزبية جديدة محددها الأبرز القدرة على التعامل مع غزة

وفق خيار إسرائيل الأخير.

فإذا كان خيار إسرائيل وفقا للائتلاف الحكومي السابق هو محاربة حماس، فإن المجتمع الإسرائيلي سينظر إلى الأحزاب وفق هذا المعيار وحينها سيخرج بالآتي:

- حزب كاديما انتخب لقيادة إسرائيل حين أقنع شارون جمهوره بأهمية خطة الانسحاب أحادي الجانب، وغزة الآن تمثل فشل تلك الخطة، وهنا ستؤثر الحرب سلبا على كاديما.
- حزب العمل، لم تعد خيارات حزب العمل مقبولة ومنطقية في ظل التناقض القائم بين المزاج العام الإسرائيلي وبرنامج العمل السياسي.
- حزب الليكود سيكون الأقدر حسب الرؤية الإسرائيلية، ليس لكونه ليكودا، بقدر ما هو متناغم كحزب يميني مع ما هو مطلوب إسرائيليا للتعامل مع الفلسطينيين.
- إسرائيل بيتنا وبقية أحزاب اليمين المتطرف، يمثل نفس ما يمثله الليكود للإسرائيليين، لكن بصورة أكثر تطرفاً وحدة.

وأكدت نتائج الانتخابات ذلك، فبالرغم من أن كاديما حصل على أعلى نسبة من الأصوات، إلا أن الانتخابات لم تكن حزبية بقدر ما كانت برامجية. وهنا يمكن القول أن كاديما فاز بعدد الأصوات لكن اليمين انتصر في المحصلة النهائية، وهنا يظهر أن البيئة السياسية التي صنعتها الأحزاب المشاركة في الائتلاف الحكومي آنذاك، ساهمت في أزاحتها وإدخال أطراف يمينية بقوة إلى معادلة الحكم في إسرائيل.